توهج الذاكرة

محاولة لإدراك مقولة الوجود الصعب ◇ مرثية لعامل الطين وقارئ الفلسفة

د.فاضل سوداني

زهور حمر للزمن المسروق
ثعبان يتلوى في صحراء
الشيخوخة المنتظرة
للذاكرة المتوهجة بالماضي
والملتاثة بالنسيان .
زهور حمر لملائكتي
للأحلام التي لم تتحقق،
والشهداء الذين مروا غفلة دون
أن يتركوا كلمة.
زهور حمر للعائد إلى فردوس
النور.

كاظم طوفان ،عراقي عنيد في فهمه للشيوعية والشعر ، عنفوان شاب جسور وروح شفافة ، يجلس أياما في صريفته القصبية المطلة على المقبرة الإنكليزية في مدينة العمارة جنوب العراق يقرأ الفلسفة في محاولة لإدراك مقولة الوجود الصعب ، في تلك المقبرة التي شهدت أحلامنا من اجل الحرية و التي تعلمنا فيها الحياة ممزوجة بمباركة فلاسفة الفكر في صراعهم مع الوجود والعدم ، هنالك ينبثق رجل المخابرات متظاهرا أما بالسباحة في نهر الكحلاء أو التنزه الكاذب في بستان أحلامنا وإذناه مشرعتان للريح ليسمع همس أرواحنا ، فيطردنا نهائيا ويحرمنا من التمتع بفيء النخل وجمال الطبيعة .

كاظم طوفان عامل طين غني الروح يقرأ الفلسفة من أصولها ويتحاور مع مثقفي العمارة بعناد من اجل أن يجعل منهم أناساً يسيرون على الأرض بعد أن كان عنفوانهم وتعاليهم على الواقع يصل حد السماء. انهم من جيل الستينيت ، جيل الخيبة والهزائم السياسية والروح العبثية والوعي الوجودي والابداع الديناميكي . جيل غريب في وعيه وتمرده في مدينة جنوبية مهملة ومكروهة من الحكام أصحاب العيون الصفراء ، وبالرغم من غناها (حيث يشكل نفطها ثلث نفط العراق) إلا أنها منهوبة في كل الأوقات ، ما نقل محافظ او مسؤول منها بعد ان تزكم عفونته إنوف أهاليها إلا وسأله (كم عمّرت في هذه المدينة الشيعية الشيوعية الحمراء) (والمعنى هو تعمير الجيب).

جيل من المثقفين في مثل هذه المدينة الملعونة من قبل جميع الحكومات بلا إستثناء لا بد أن يقف على أسباب استلابه ولهذا فأن صفوته قادرون على تحمل المصاعب و التضحية بحياتهم في اكثر الأزمنة خطورة من اجل نقاء الموقف . وهذا ساعد كاظم طوفان على اكتشاف اللغة التي يتعامل بها مع مجموعة المثقفين المتمردين على واقع مدينتهم ، فكان هو القادر على كسب ثقتهم وودهم عندما كان في العمل السري .

في مقهى أبي سعدون على نهر دجلة يجلس هؤلاء المثقفون الوجوديون والشيوعيون معا يتحاورون بهمس مبحوح حد الخناق في الاشتراكية والثقافة والفلسفة والعراق وجوعه الدائم . هنالك التقى بن طوفان بفالح حسن ومشروعه الروائي الذي لم يتحقق ، وحافظ الشعر الأوربي نصيف جاسم الذي كان ينشد الأرض الخراب لإليوت كاملة بطريقة يجعلك تفهم كل أسرار القصيدة ويبدأ مقطعها الأول ـ دفن الموتى ـ بالغناء

(نيسان اقسى الشهور ، يخرج / الليلك من الأرض الموات ، يمزج / الذكرى بالرغبة ، يحرك / خامل الجذور بغيث الربيع .)

في زمن الجوع والحروب البعثية انتقل نصيف جاسم الى بغداد وتحول إلى مصلح (بريمزات) ليعيل عائلته (يبدو هنالك علاقة سريالية بين مصلح بريمزات والشعر) وفي ليلة واحدة سهر نصيف لينسخ ديوان محمد الماغوط ـ الفرح ليس مهنتي .

ومن الذين شكلوا ذاكرة كاظم طوفان و سلام مسافر وأحلامه الصحفية ، والفنان ناصر علي الناصر الذي تركنا مبكرا بغفلة منا ، كان مؤهلا حقا لتبني فكر حداثي في المسرح ، وعبد الرضا جابر وفاضل خليل وأحلامنا المسرحية المبكرة ، و شاكر حمد وصمته الدائم أمام لوحته الكونية ، وجميل جبار وحبه وتفانيه للمسرح ، والفنان زاهر الفهد وإبراهيم غزال اللذان علمانا القوانين الأولى في المسرح ، والنحات محمود حمد وسخريته الملائمة ، وحسين عجه وتشاؤمه وتمرده الوجودي . والمطاردون دائما من رجال مخابرات العمارة :أبو وسام وهشام الطائي وعبد الحسين علي (الذي وضع حياته على راحة يده وسار مفتونا) وابو عبد الله وابو دجلة ومهدي عمران وعبد الإله الشيباني ، والمصورة سميرة مزعل، وسلام عبود وسخرياته الواعية التي تحولت الى روايات مثيرة و متميزة ، وكاظم جبر وسعدون عبد ياسين (ونكاتهما) التي سرعان ماتنتشر بين الناس ، احمد البياتي ومشروعه النحتي وعبد الرحيم البياتي الذي كانت معارضه الفنية يؤمها بسطاء الناس حيث تحلقت الكثيرات من نساء العمارة مندهشات حول تمثال فينوس العاري الذي نحته. والرسام عبد اللطيف ماضي وعبد المنعم مسافر وعاصم نجم الفنان الرقيق الذي مات باللوكيميا بالرغم من تبرعي له بالدم كمحاولة أخيرة لإنقاذه . وماجد الصابري والمسرح الذي وأده في بداياته . في هذه الفترة تراءى شوكت الربيعي مدرسا تقدميا للفن ، وبتواضعه الجم كان صديقنا نحن تلاميذه، وبقصدية كان يمدنا بمختلف الكتب (الممنوعة أحيانا)، ومعارضه المهمة كانت بهجة لأهالي العمارة، تلك المدينة الغنية بزراعة الرز والمتفردة بأهوارها الجميلة، وقد أثرت معارضه على وعي الكثير من المثقفين الذين يساهم بعضهم الان في بناء مستقبل الثقافة في العراق . وآل المطلبي وفي مقدمتهم عبد الرزاق المطلبي ومشروعه الروائي حيث كان عقله وروحه غنيتان بأساطير الهور واسرار(قرى الحلفاية) ، وعبد الوهاب المطلبي ومحمد شمسي (محمد حسين المطلبي) الذي كان شاعرا شفافا وأكثرنا مغامرة بالحياة ، قطع أفريقيا حتى بغداد ومن ثم العمارة ، على دراجة بخارية . وخالد السعدون المعلم الذي نفى نفسه اختياريا في أعماق ريف العمارة وقاسم جويد وأحلامه الاشتراكية ، كانت السلطة في زمن الجبهة الوطنية تحرض الفلاحين للإعتداء عليه باعتباره شيوعيا ملحدا ، وكاظم بدن الفلاح الشيوعي الذي كان يقلق رجال المخابرات فيتابعونه أينما حل (حتى انهم فرضوا على جيرانه في الريف ان يراقبوه ،لكنه كان يخرج متلفعا بالفجر متسللا بزورقه نحو الهور لعقد اجتماعاته الحزبية ويعود قبل ان يستيقظ جاره وعندما كان يأتي الى العمارة في فترة الجبهة كان يدخل مقر الحزب بملابسه الفلاحية وملاحقوه من المخابرات كانوا ينتظرونه ، لكنه يخرج بملابس اخرى كأنه موظف او معلم ويمر من أمامهم دون ان يتعرفوا عليه). وعبد الجبار ناصر وحسن وشريف شاوي ، وحميد الاوتجي وعبد الحسين شابث وعباس حسن وعبد الزهره الحلاق، وكاظم جاسم الذي كان يثير ريبة المخابرات واستفزازهم بصمته وتشرده وسيره على الأقدام مسافات طويلة في أطراف المدينة مما يدفعهم إلى تفتيشه دائما. وفي إحدى المرات وجدوا لديه قصيدة وصورة للشاعر فاضل العزاوي ، لم يفهموا شيئا منها عندها اتهموه بحمل منشور سياسي او بيان رقم واحد لقلب الحكم ، فاقتادوه لوكرهم بالرغم من ان القصيدة والصورة كانتا منشورتين في إحدى المجلات الحكومية. وكذلك إبراهيم زاير المناضل العراقي المتمرد والرسام على خلاف رغبة والده ، والصحفي ، والكاتب ، والشاعر ، ومصحح المجلات والجرائد . مهوس بالفن ، عنيف مع ذاته ومع المثقفين الخونة ، مبارك ، ساخر ، يساري متطرف ، قارئ للكتب الملعونة رشيق ،شفاف يدخل القلب سريعا . ترك مدينته العمارة وهام في آفاق الفن والنضال ، عمل في المقاومة الفلسطينية ،انتحر احتجاجا على انقسامات اليسار العربي او لأنه فضل ان يتخلى اختياريا عن الحياة ، أو لأنه لم يكمل لوحته الكونية بالرغم من انه قال كلمته الاخيرة في آخر معرض فني أقامه في بيروت قبل أن يغادرنا ، تاركا زوجته ترسم ملامحه لطفلته التي لم تره ، والكثير من الاصدقاء والمتشمتين ، وشعر وكتابات وأسئلة مصيرية واحاسيس في أزمنة مختلفة .

أما سميرة معارج فقد بذل بن طوفان جهدا استثنائيا ليبني وعيها كزوجة وصديقة و امرأة تعرف أسباب استلابها ، وفعلا نجح في ذلك ، كانت تثير دهشة و فضول أصحاب المحال عندما يشاهدونها تتقدم لتشتري مجلة الآداب والثقافة الجديدة من المكتبة العصرية في سوق العمارة الكبير . والان عندما يئست من العثور على شاهده لقبره في كردستان تصرخ بي في إحدى رسائلها (في أي موانئ رسيتم ؟، ألا يستحق هذا الذي حمل رأسه على كفه ، أن يوجد له قبر . كان طاقة هائلة من الثورية والشجاعة و.....، كان الحقيقة كلها، حرا عظيما، أنه زوجي وإبني ونبراسي وقدري).

هؤلاء المختلفون في أفكارهم وطموحاتهم ، الأحياء منهم والأموات هم الذين شكلوا بعض أطياف ذاكرة كاظم طوفان ،و الذي حرص آنذاك على أن يجعل الكثير منهم جزءا من تكوينه كمناضل ومثقف متفاعل ،ومن واجبه أن يدافع عن أحلامهم لأنه يعتبرهم رفاق وأصدقاء المستقبل يلتزمون السؤال المشاكس كمنهج لتحليل الظواهر ، والسؤال بدء المعرفة .وعندما تفرق الأحياء منهم في آفاق الدنيا بسبب فاشية السلطة البعثية ، كانوا متقاربين في مصائرهم كبشر مخلص لإنسانيته ووظيفته الإبداعية.

أما ابن طوفان فلأنه مثلهم عراقي واع لأسباب فقره وعاشق لحريته شمله الاعدام البعثي عند استلام صدام حسين السلطة ، وكعادته لم يبال بذلك لأن روحه متوهجة بدجلته ، وكان آخر من خرج من العمارة وبغداد حيث اضطر لمساعدة رفاقه والاطمئنان على سلامتهم هناك أو خروجهم الى المنفى في زمن اللهاث والهروب اللامجدي.

وفي فجر يوم غائم ممطر ، رحل يجوس أراض غريبة عن روحه حيث المنافي الباردة ، . وفي بحر منفاي الأول عندما خرجت لتلقي الفكر وجماليات الفن ، كنت ألامس روح الفكاهة أحيانا أو السخرية ، لكني صمت دهرا . وفي يوم كأنه النبوءة كان المطر ينث في روحي ، هنالك في صوفيا ، بدا البلغار كأنهم أشباح ميتة أو كائنات تتراءى ملتصقة بزجاج سياراتهم الأمامية .هل يمكن أن يكون البشر بهذه الكثافة والزوجة ؟ ، هنالك انبثق ابن طوفان فجأة أمامي في الجانب الآخر من شارع (راكوفسكي) بابتسامته الحزينة والدافئة والمشوبة بلامبالاة دائما.

صرخت ... ـ حتى أنت يابن طوفان ؟

وقف أمامي شبحا ساخرا من ويلات وجنون عصره .في تلك اللحظة هممنا بعبور الشارع وفي منتصفه تعانقنا ،وسمعنا البلغار يشتموننا مبتهجين بسياراتهم اللادا . ضحكنا ساخرين لأنهم لم يفهموا أبدا سر بن طوفان وعبوره الصحراء العربية حافيا بعد أن رأى خرائب المدن وروح الإنسان المتوهجة . هنالك جلسنا في مقاه وبارات دافئة نستحضر الماضي وتلك الأحلام الجنوبية في مدينة تغمرها رائحة رز العنبر والشوفان والرطب الخستاوي والطين الحري ، المدينة التي لا تتكامل إلا بنهر دجلة وقصر فتنه (من أهم معالم العمارة العمرانية بناه الشيخ محمد العريبي لزوجته ، هدمه النظام لمحو بعض من تاريخ المدينة) ولا تتكامل هذه إلا بمضايفها ومطربيها الريفيين ومعدانها الذين يكرههم النظام دائما ، ومثقفيها الغرباء الحالمين بالخروج منها بالرغم من انهم مخلصين لها فسرعان ما يعودون الى أحضانها الجنوبية الدافئة ، ولا تتفرد هذه المدينة إلا بمشرديها وفقرائها و مجانينها وعقلائها. إنها العمارة التي عندما يصلها دجلة من شمالها يتفرع الى ثلاثة فروع وكأنها أصابع من الماء الزلال تحتضنها.

وفي صوفيا كنا نجلس أنا وكاظم طوفان يلفنا شعاع خفي ينير الروح ، فهنالك سر لن ينكشف ولم نتحدث عنه... أنه المجهول . عندها ضجرنا، نظر أحدنا بعيني الآخر. أياما عديدة لم التق به لأنني أعرف أنه ملكاً لمشروعه الثوري فقط. صمت ابن طوفان أياما يحلم بالبحر الذي تعوف أعماقه الأدران والأشنات النتنة، وبعد آخر موعد معه تخلفت عنه ولا أتذكر الأسباب الآن، بحثت عنه لم أعثر عليه حتى عرفت بأنه غاب في دروب الغربة من جديد فعبر الأبيض المتوسط بغفلة مني يلاحق مهرا بعرف ذهبي في بيروت وتل الزعتر وصبرا وشاتيلا والروشة ، هناك اصبح مديرا ويدرس في ذات الوقت الفلسفة في المدرسة الحزبية للجبهة الديمقراطية الفلسطينية... اللعنة لم يهدأ ، كان الحلم بأفقه الكبير دليله للمستقبل ،وخفت ألا أراه أبدا، لأنه كان مشروعا عراقيا للتضحية ،إذ هو كالفراشة التي يدفعها فرحها بالنور للمغامرة بالدخول إلى النار. وأنا كنت ألاحقه كحلم هائم في البراري .

لم يهدأ هناك أيضا... حتى كانت كردستان العراق وبالذات (بشت آشان) زهرة في فردوس أحلامه، ذهب هناك كأي وطني ثوري وشيوعي عراقي للدفاع عن الحياة و العراق وكردستان وقتال الشر المنظم فيها زمن النظام الفاشي.

في عام١٩٨٢ دخل كاظم طوفان كردستان بعد رحلة متعبة وخطرة أستشهد فيها الكثير من رفاقه بسبب الكمائن الكثيرة على طول الرحلة .وبما انه كان شابا ومثقفا ليس فقط بالافكار الماركسية والثورية وإنما بالثقافة الإنسانية ألعامة، و كان يقرأ كثيرا هناك لأنه كان يؤمن بأن الثقافة سلاح ضروري بالنسبة الى المناضل الثوري أيضا.

وكل هذا جعله أن يكون ديناميكي التفكير ، وبالرغم من أن هذه القدرات في ظروف خاصة قد تثير الغيرة والحسد، إلا أنها أكسبته احترام الكثير من رفاقه سواء العاملين معه في قاطع بهدنان (بوادي الحصان) أو أولئك الذين سمعوا عنه في القواطع الاخرى. كان يدعو الى تطوير قدرات الرفاق وتسليحهم بالأفكار الديناميكة المتطورة والابتعاد عن الشلليات و التكتلات والتملق، ماداموا يعملون في حزب مناضل طوال تاريخه المديد ، وكان يؤكد ويحث المقاتلين على الاختلاف في الرأي في داخل العمل الحزبي، بدون المساس طبعا بوحدة وسياسة الحزب العامة ، حيث كان واعيا بالعديد من سلبيات العمل والنضال وإيجابياته . وعندما نقل إلى القواطع المقاتلة والسرايا المتحركة والفاعلة وأصبح مستشارا سياسيا لسرية مقاتلة كان يهتم ويبرز الرفاق النشطين الذين يتميزون بديناميكية التفكير والدقة في أداء واجباتهم لأن مواجهة الموت تتطلب ذلك وترفض الكسالى . وبالرغم من هذا كان أنيقا في ملابسه حتى وهو في غمرة الكفاح، وفي عام ١٩٨٣ نقل الى سوران في اربيل حيث اختاره الحزب لمهمة صعبة لها علاقة بنقل وتسهيل وصول الرفاق (بما فيهم هو بالذات) الى داخل العراق . لكن ماحدث في (بشت آشان) عطل مشروع كاظم طوفان النضالي.

(بشت آشان) كانت حلمه لكنها أصبحت حتفه ومنفاه الأبدي.

فالموت كالقبطان المسن الذي يستيقظ مبكرا من كوابيسه ، الموت يصبح غباء و يتحول إلى كرنفال للهزء من الحياة عندما يتحارب المضطهدون فيما بينهم ويقتلون زهرة النرجس ، والفاشيون النزقون ، أصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ يتفرجون . هنالك تجاسر بن طوفان على ذاته فشد وتر من حياته حتى النهاية ، وأمام الجبل ربط ساقه حتى لا ينسحب من الموت بل واجهه كحتف يتحداه ، لان مهمته تقتضي التوحد مع المحاصرين في السفح الآخر من رفاقه . هناك فقط تناثرت روحه وتحولت الى نسر البراري الذي مازال يحوم فوق رؤوسنا ليغزو ذاكرتنا كوابيس..

زهور حمراء للأصدقاء الذين أحبهم
والشعر الذي لا يقرأه أحد.
زهور حمراء للمرأة المباركة وتلك التي لم اعرفها بعد.
للذين ينتظرون تجار الغربة في أوطانهم .
زهور حمراء لامرأة تطرق بابي في الليل.
سيدة الأقحوان والمنافي الاسكندنافية ،
اجلسي بلا وجل
نبئيني زمن اللهاث وزمني الذي كنت تنتظرين .
حزن جديد ،
فرح كاذب ،
كلمات غير مجدية
اركعي أمام تمثالي الساخر وسط ملائكة
الليل ، الفجر ، المنفى... و .

وفي تلك اللحظة التي يتململ فيها الفجر ليتنفس الشمس ، انشق جدار غربتي الاسكندنافية عن حورية شقراء بجدائل ذهبية طفولية طويلة كأنها أيقونة للملاك ، وقفت مبتسمة ماسكة خصلات شعرها في الظلمة تشع نوراً لازوردياً متوهجاً . ركعت منحنية أمام ملائكتي فتوسد شعرها الأرض كلهيب نافر .نظرت نحوي هامسة بغضب :

ـ ما الذي أتى بك إلى شمال الكوكب هذا ؟

خجلت لأنني لا أملك جوابا وتلفلفت زاوية ، لكن ابن طوفان أنقذني عندما انبثق من الظلمة شبح اخضر ، فسمعت هذا الهمس كأنه الفحيح...

إبن طوفان : لا تغضبي أيتها المباركة ها أني جست الصحارى والبراري ، فرأيت البشر جثثاً متناثرة مفقوءة العيون مقطوعة الأيدي ، لاحول لها ولا قوة ، لانهم نسوا الحكمة والغضب المبارك ، وتوسدوا وعودا كاذبة من البعثيين الغرباء أصحاب الأبخرة الموبوءة الذين استباحوا العراق، أما أنا فتناثرت في البرية ، وتحولت إلى صوت هادر هل سمعوه ؟ غير أن قلبي جمرة تدفئ ليل المنفيين. لا تغضبي سيدتي انه العراقي المنسي المتلفلف بقدره ، وليس له إلا الله ، ليس للعراقيين إلا الله.

بكت الحورية الشقراء ،وخصلات شعرها المتوهجة تضيء الظلام ، ناظرة لي من خلل دموعها . وحالما تسلل أول شعاع للضوء في ذلك الصباح الاسكندنافي ، ارتعب ملاك ابن طوفان وبحركة خاطفة وقف على حافة النافذة ، ونشر يديه فتحولتا أجنحة خضراء، وغاب في سماء القطب الرمادية فسمعت صدى روحي:

انقذنا يارب الكون ـ يا
وطني كم حملوك بالشرور.
وسمعت صوت بن طوفان كأنه الصدى:
اكتبوا على شاهدة قبري
(ذروا عيوني
ملحا ورمادا وتوابل
وأذلوا ، في جهد مضن
جسدي الناحل
والغربة في عرف العاشق
ألم قاتل)؟
بكت الحورية وهي مازالت تنظر نحوي
نظرة لم أعرف سرها حتى اللحظة .
حدثيني ما تشائين إلا غربتي
فثمة حزن في روحي .
اغضبي إن شئت واتركيني في صحراء الوجد
فهناك كابوس ينتظر في الشرفة .

انسلت الحورية الشقراء خارجا ، وعند الباب وقفت ملتفتة نصف التفاتة ، ولا أعلم كم من الزمن مضى وهي واقفة هكذا ، وكم من الزمن سيمضي وأنا في زاويتي انتظر كاظم طوفان عسى ألا يتخلف عن موعد كان بيننا .

(مقطع من قصيدة لكاظم طوفان ،حسب ذاكرة حسن شاوي)

كوبنهاكن
شمال الكوكب

وتركت اضيقها علي بلادي*

علي عبد الامير

إلى اخي قاسم

النعناع اشمه في فراتك المخضب
النعناع اخضر على جبينك وقد ادماه الرصاص
الدموع خضر تبلل وجنتيك
الصمت ثقيل والعراق كئيب
الطريق مخضب الى (مقبرة السلام)
الطريق هادئ من (مقبرة السلام)
هدوء تابوت لايدري
أي جسد مضيء نام فيه
واي امل تفتقده البلاد الان؟
ناح الجمال عليك وانكسرت غصون الياسمين
اتراك اطلقت حسرة وهم يهرعون ببنادقهم اليك؟
هل تملك اليأس قلبك الذي غفت فيه الملائكة،
اهو من العدل ان نفترق ونحن في اجمل الكلام؟
كان من الضروري اذن ان تسمل عيون الغد
كي يهدينا الطريق الى العراق
كان من الظلم ان تكون هناك،
تظل حارسا لفجر
كان فيه من يعد الرصاص لقتلك
لطالما شقت ذراعاك وانت تزرع ريفهم
فأوفوك سنوات الخصوبة، بترعة من دماء
لطالما حنوت على فجر ابنائهم
وكانت لاتسعك الارض وانت ترمم مدارسهم
ردوا لك الجميل،
فأطلقوا الرصاص على حيدرك الجميل
كنت اشرعت بيتك لهم سفينة فيما الارض طوفان
فكانوا شجعانا اذ ذبحوا ضيفك وخلك
اوسعت لهم الحقول فسدوا عليك الطريق
رفعت راية للبلاد فداس على صدرك
احفاد شمر بن ذي الجوشن
اكنت يائسا، اقلت لهم بلطفك المعهود:
الحقول تسعنا جميعا ولم اقف حائلا
بين اياديكم و(كمشة) قمح؟
من المؤكد انك نظرت الى سماء الله
ودعوت: كن رحيما بولدي
ولترع ملائكتك ترعة في بيتي،
غفا على نعناعها اهلي
سكنت نسائم الصبح، وضاقت بالدموع
ارواح محبين عرفوا غرين البلاد من يديك
انتحبت قلوب الفتيات في بيوتنا
فقد غاب حامل المسرة، وتوارى حارس الضحكات
وذبح من عتمة الليالي، كان مفتونا بشمعة الامل
غاب النبيل الانيس
وظلت اكفنا مفتوحة بانتظار نعناع راحتيه
غاب الجميل
وعلت في البلاد سماء من توابيت
طاب البكاء في الثنايا،
وطافت فوق بيتك الحمامات النائحات
والحبر نادى بعضه في صحفك
ونزل اسود مسفوحا على منضدة
ضاقت لياليها بفكرتك
ايها العادل الحكيم
رغم محنة في كربلاء الا ان حسينا
آخى دمه بدمك وانت تطوف روضته
رغم الرصاص في النجف غير ان عليا
رمى عباءته على جسدك الذبيح
وانت في حضرته
ياأخي وميزان العدل في فكرتي
لطالما عطرتنا مواكب الحسين بماء الورد
كنت لـ(القاسم) شبيها
وانا في كل عاشوراء
مرعوبا كنت من ذبح يطارد (اولاد مسلم)
عبد الامير وقاسم وعلي، حفاة نغيب الى كربلاء
دماء الحسين اجنحتنا،
واشعار امي في مديح زينب
تخضب ارواحنا
اتراك اليوم جناحي وان كان كسيرا
اتراها امي قريرة العين وانت تنام
حتى يوم الله بين يديها؟
هل ستبلغها خوفك علي
هل سترد عليك بقلبها الخضيب وتقول:
لم اهنأ ولم تكن الايام رحيمة بشموعه،
لاييت آواه هنا،لاسماء امطرت املا بين يديه
اكتفى من البلاد بالحروب، ومن السفر بالغرباء؟
عبد الامير وخديجة وقاسم: أي شموع سترتعش
وهي تتكئ على قبوركم
أي اجنحة ستأخذني اليكم
أي ذبح ينتظر القلوب الرحيمة؟
أي موت بهيم يحيق بالعراق
أي بلاد تنزل فيها السماء كحجر ثقيل
على اكتاف المحبين؟
عبد الامير وخديجة وقاسم وعلي:
حفاة ابديون الى كربلاء
ونار ابن ذي الجوشن
تستعر لهبا في اعالي الفرات

٥ حزيران-١٥ تموز٢٠٠٤

*العجز من بيت للشاعر الشريف الرضي في رثاء شقيقه
ضاقت علي الارض بعدك كلها وتركت اضيقها علي بلادي

مقاربات.. في العقل والثقافة

علي الحلي

يواصل الناقد العربي الأستاذ محمد مبارك رفده المكتبة العربية بالعديد من عطائه الإبداعي في الميادين النقدية والتراثية والفكرية والمسرحية والفلسفية، وفي مدار الساحة الثقافية الواسعة، المتنوعة، حيث أصدر كتباً عدة تجاوزت العشرة.

وأحدث ما صدر له كتابه (مقاربات.. في العقل والثقافة) تناول فيه اثنين وثلاثين موضوعاً، تجلت في أكثرها تميزاً. قوة المنطق ورجاحة الحجة ووضوح البرهان. وسعة المعرفة التحليلية، وروح الاستنباط، وسلامة الاستنتاج بعد جلاء الاستقراء.

وبنظرة فاحصة من التأمل والمتابعة.. ربما نستلزم إسهاباً أكثر في تحديد مواضع الأصابع على المعطيات الكثار. ولكننا آثرنا الإيجاز المتناهي والتركيز على المؤثر الأهم بتقديرنا الخاص في هذا التكثيف من المراجعة.

قبل كل شيء - ومن زاوية تجريبية ذاتية قد لا تتصادى مع غيري من القراء الأوفى حظاً من النباهة واتساع الأفق المعرفي - أرجح للقارئ العادي اليومي، المعتاد على ثقافة قراءة الصحف المتيسرة أن ينأى بنفسه عن قراءة نتاجات الأستاذ مبارك المرتكزة على المدار العقلي - الفلسفي في أكثرها، لأن قارئه يستلزم نمطاً نوعياً إلى حد كبير من المثقفين الخواص، الذين يفترض فيهم أن يجهدوا أذهانهم من خلال التأمل العميق، ويحتكموا إلى عقولهم بمودة وتحنان.. طريقاً وهدفاً للتواصل المتابع، الحي مع (مقاربات في العقل والثقافة)، وألا يحجموا أو يترددوا عن المراجعات المعجمية اللغوية أو الفلسفية.. مما لا يتأتى للقارئ العادي البسيط، المصحوب أحياناً بالدعة وراحة البال، والكسل الذهني المتاح، أو الابتعاد الكلي عن الرهق المنطقي والتوسع في مزالق التية الخيالي.

وبكل تواضع، لا أدعي انني هنا في موقف نقدي متكامل مع نتاج الأستاذ مبارك الجديد ولكني ربما أزعم انني خضت في مراجعة موجزة ومركزة، لكي تلقي بعض الأضواء الكاشفة العامة على الكتاب.. بعد أن اجتزأت الكثير.. الكثير مما سجلته من عرض وملاحظة أو معالجة، لكي أجنب القارئ عذوبة الاستمتاع الذاتي فيما تبقى من معطيات الإيجاز والتكثيف الدالين على صواب الهدف وبصورة مقبولة من وجهة نظر الحس النقدي.

في الفصل الخاص بالعقل العربي وتحديات وجودنا المعاصر، يستعرض الناقد الكبير مبارك مفاهيم العقل المتعددة لدى الفلاسفة والمفكرين، وفي مقدمتهم (هيجل) ويناقش الفكر المطلق الذي نادى به، ثم رؤى الآخرين لاسيما الأمر المتعلق بالنظرة الفيزياوية والكيمياوية للعقل كطاقة ENERGY، وهو جهد يستحق الاهتمام الجدي.

وفي الفصل الخاص بمطارحاته.. (الجابري) والبنية الحضارية لبغداد بني العباس، ينعى مبارك على الجابري.. اعتماده أسلوب الإلغاء أو الشطب في تقويماته عامة، ويحاول إبعاده عن (الانسياق وراء نوازع إقليمية وطائفية غير جديرة بمفكر كالجابري). وبالروحية نفسها.. كان موقف الأستاذ مبارك في الفصل اللاحق (مفهوم العقل والعقلانية) حيث اتسم موقفه النقدي بالآراء الجريئة المجابهة.. في تحديد مفهوم العقل.. كأداة أو طاقة للنتاج الفكري، بينما يكون (الدماغ) أو المخ.. تركيباً فسلجياً بايولوجياً.

كما يرد على الدكتور محمد عابد الجابري في استبداله مفهوم (العقل) بمفهوم (الفكر) بوصفه أداة الإنتاج النظري (بهذه المناسبة.. للأستاذ مبارك رد مفصل حول هذه المعضلة أورده في كتابه (الجابري بين طروحات لالاند.. وجان بياجيه) الصادر عام ٢٠٠٠ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت).

وفي الحقيقة.. إن مداخلات الأستاذ مبارك النقدية مع الجابري شدتني إليها في مجال النقد الذهني، المستند إلى المنطق والعقل، ولعلها - بالنسبة لي - من أمتع فصول الكتاب.

وفي موضع (الثقافة.. مصطلحاً وفهماً) كنت أطمح من الأستاذ مبارك أن يفرد له مساحة أوسع، وتبياناً أكثر وأدق، وتقديم تعريفات جامعة ومحددة، تتعلق بمفاهيم (المتعلم) و (المثقف) و(المفكر) و(المتحضر) و (المتمدن) الخ.. لأن هناك خلطاً عجيباً، وخبطاً غريباً مليئاً بالفاقة المعرفية الشمولية في الدلالة المحددة الصائبة.. حتى بالنسبة إلى أولئك الذين تطلق عليهم صفة (المثقف) عموماً بلا تصنيف أو حصر هوية، وكل هذه التعريفات الدلالية يحتاج إليها القارئ المتابع، ويهمه كثيراً توضيح مفهومها المحدد.

ويستعرض الأستاذ مبارك في موضوعه (السيميولوجيا) عدة تلخيصات من الآراء لبعض الفلاسفة والمهتمين بعلم (اللغة العام) وعلم (العلامات). لكن أصدق تعريف للثقافة بتقديري ما ورد في الصفحة ١٦٣ من إنها (المعرفة الواسعة والمتنوعة) وقد أكد على هذا التعريف من قبل الأستاذ محمود أمين العالم في إحدى مقالاته النقدية.

وفي موضوع (الثقافة والتلفزيون) يشير الأستاذ مبارك في الصفحة ١٧٣ بقوله (لعل التلفزيون.. أخطر وسائل الاتصال الجماهيري) وهذا القول صائب تماماً على وفق مرحلته الزمنية.. تماماً مثلما أشار الكاتب الفرنسي الكبير جورج دوهاميل في كتابه الشهير (دفاع عن الأدب) الصادر عام ١٩٤٢ عن (الراديو) كأخطر وسيلة اتصال جماهيري، وأوضح خطورته على ثقافة الكتاب المطبوع، غير ان قول دوهاميل ينسجم مع تلك المرحلة أيضاً، وقبل اختراع جهاز (التلفاز).

غير إن ظاهرة (التلفاز) الصائبة.. أصبحت اليوم من الوجهة الكونية تأخذ دوراً ثانوياً إلى حد ما بعد رواج (الانترنت) في شبكة المعلومات، وما يقوم به من تسهيلات البريد الإلكتروني E- MAIL والسرعة الهائلة في توثيق الاتصالات. وهكذا يلعب العلم التقني دوره المتسارع في تغيير مفاهيمنا بحسب التطور الزمني.

وفي الكتاب.. مطارحات فكرية لآراء الكاتب الاجتماعي الراحل الدكتور علي الوردي في كتبه المتعددة، التي أثارت ضجة واسعة في أرجاء الوطني العربي وخارجه.

ولعل أبرز ملاحظاته تلك الفرضية التي تدور حول (التناشز) بين قيم الحضارة.. حيث يجعلها الدكتور الوردي أساساً لظاهرة (الازدواجية) في السلوك والتصرف بالنسبة إلى الفرد العراقي.

ويفرد الأستاذ مبارك مساحات واسعة من كتابه لمناقشة (عبد الرحمن بن خلدون) ونظريته التي وردت في مقدمته المعروفة في الاجتماع والعمران، ثم يقدم صورة قصيرة لكنها مكثفة ونافعة عن (الحسن بن الهيثم) ويعدد منجزاته الإبداعية العديدة في الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والإحصائيات والرياضيات بما يزيد على الأربعين كتاباً.

وفي ثلاث حلقات متتابعات، يستعرض الكاتب موضوع (الفكر العربي الإسلامي الوسيط) و(النزعة العقلية في الحضارة العربية الإسلامية الوسيطة) و(التركيب.. وحركة التوفيق في العقل العربي الإسلامي الوسيط)، ويعبر بموضوعية حرة عن رؤاه الخاصة ومؤثرات النتاج الإغريقي (اليوناني).. تماماً مثلما استفاد اليونان أنفسهم مما انتهت إليه حضارات بابل وطيبة والهند والصين.. وبلاد فارس كذلك..

ويمر سريعاً في موضوعات (العلم في الإسلام) و(مفهوم العقل بين الفارابي وكانت) و(نظرة.. في التراث) مع العرض بأن للكاتب نفسه كتاباً كاملاً بهذا العنوان صدر قبل بضعة أعوام، وهو أكثر تفصيلاً ومادة.

ويتعرض الأستاذ مبارك.. إلى (نظرية الفارابي في الاجتماع والدولة) بشكل موفق خصوصاً في اعتماده الأساس على كتاب الفارابي (أهل المدينة الفاضلة).

وهناك موضوعات أخرى متفرقة مثل (مشروع كتاب.. في جريدة) الذي تبنته منظمة اليونسكو بإشراف الشاعر شوقي عبد الأمير.

ولعل أهم ما ورد فيه احتجاجه على استبعاد كتب النقد الأدبي من مشروع اليونسكو في أكثر من خمسة وعشرين بلداً، واعتباره إجحافاً بهذا النشاط الثقافي.. في الوقت الذي يرى المؤلف.. التفات اليونسكو من الحسنات، لأن النقد.. كإبداع ذهني جمالي ليس للإبداع عنه غنى، على حد تعبير الأستاذ مبارك.

وفي الكتاب فصلان ممتعان، ينمان عن صورة مشرقة من الوفاء الجميل لبعض الراحلين من أساتذتنا الأجلاء كالدكتور المخزومي، والدكتور الطاهر.

ومن الواجب التنبيه إلى ورود بعض (التكرار) سواء في تعريف الألفاظ، أو ذكر المضامين، وأشير إلى ذلك في سبيل المثال إلى ما ورد في الصفحتين ٧٦، ٧٧. وكذلك الحال ما ورد في الصفحة ٧٢.. والصفحة ١٦٠ عند الحديث عن (الثقافة والتلفزيون) مما لا يؤثر على المحتوى الجوهري لهذا الكتاب الممتع، المترع بالثقافة الملونة، وتحياتنا القلبية للأستاذ الناقد محمد مبارك متمنين له التوفيق في منجزاته الإبداعية المقبلة.